الفصل الأول

المجندون الجدد

أفغانستان

غادر مروان الشحي هامبورغ أولاً. وكانت مغادرته شيئاً مفاجئاً لأصدقائه. إذ كان الشحي في فصله الدراسي الأول بعد أن تم قبوله أخيراً في الجامعة التقنية في هامبورغ، وبعد أن لقي صعوبات كبيرة فيما كان يُفترض أن تكون سنة عادية من الدراسة التحضيرية، والتي استغرقت منه ثلاث سنوات، بدلاً من سنة واحدة، كما هي في العادة. وحصل الشحي أخيراً على درجات النجاح. يقول منير المتصدق: "لقد اشترى أثاثاً جديداً، وكتباً، وطلب مني أن أساعده في مادة الرياضيات"[1]. ويضيف: "وقال لي بأنه سيجلب زوجته من الإمارات، ثم غادر".

وبعد عدة أيام، تبعه زياد جراح، ثم محمد الأمير، وأخيراً عمر (رمزي بن الشيبة). سافر جراح والأمير على متن الخطوط التركية، كلاً على حدة، من اسطنبول إلى كراتشي. ودفعا ثمن تذكرتيهما من أموال بعثة الشحي. ولا أحد يعرف الطريق التي سلكها الشحي وعمر. وبعد وصولهما كراتشي، فإن على الأرجح أن الرجال الأربعة استقلوا رحلات داخلية، أو حافلات ركاب، في التوجه إلى كويتّا العاصمة الصحراوية المغبرّة لبلوشستان[2]. ويُذكر أن القاعدة بدأت تتجنب طريق بيشاور قدر الإمكان؛ نظراً لأن المدينة أصبحت مراقبة بشكل كبير[3]. ومع أواخر التسعينيات، كان هناك خوف متنام من الجواسيس الذين اخترقوا المعسكرات، وبدأ قادة القاعدة بارتداء الأقنعة على وجوهم حتى

obeikan.com

داخل المعسكرات[4]. ونجح أسامة بن لادن في جلب اهتمام العالم إليه بشكل كبير. وقد ثبت أن شهرته كانت سلاحاً ذا حدّين - في جلب الأخطار والمجندين - استدعت معاينة أدق للقادمين الجدد. بعض الأشخاص اضطروا للانتظار في غرف الضيافة على الحدود الباكستانية لعدة أسابيع قبل أن يتم جلبهم إلى أفغانستان. إلا أن الرجال الذين قدموا من هامبورغ لم تواجههم تلك المشكلة. فقد كان معهم تعليمات بأخذ سيارة أجرة إلى مكتب طالبان بعد وصولهم كويتّا. وكل سائق هناك يعرف ذلك المكان، كما قيل لهم. وهو بالفعل كذلك. كما طُلب منهم ترك كل شيء في غرف ضيافة الطالبان - كل أمتعتهم وجوازات سفرهم، والنقود الموجودة بحوزتهم، وحتى أسماءهم. وبحسب الإجراءات المتبعة، فقد اختار كل واحد منهم اسماً جديداً: محمد الأمير أصبح "أبو عبدالرحمن". واختار جراح اسم "أبو طارق"، وأصبح الشحي "أبو القعقاع"، أما عمر فاختار اسم "عبيدة الإماراتي"[5] وفي العادة تُقدم إلى المجندين الجدد ملابس أفغانية محلية، ويجري اصطحابهم إلى الحدود التي كانت حدوداً اسمية. وفي بعض الأحيان يؤخذ المجندون على درّاجات نارية عبر طرق يتجنبون من خلالها مراكز الحرس. وأحياناً يسافرون إلى نقاط العبور دون الحاجة لإبراز إثباتات الهوية الشخصية.

وعلى الرغم من كل ما حدث حولها، بقيت الحياة داخل المعسكرات كما هي دون تغيير على مدى عقد من الزمان. فقد كان يطغى عليها - كمعظم معسكرات أي جيش - الروتين والرتابة. الاستيقاظ مبكراً والنوم المبكر. وبينهما، التمارين، والتدريبات، والمحاضرات، ثم التمارين، والتدريبات، فالمحاضرات. ولولا فترات الصلاة والثوب الأفغاني الذي يلبسه كل شخص هناك، لكان من الصعب التمييز بين هذه المعسكرات وبين أي من معسكرات التدريب في أي مكان في العالم. وكان نظام المعسكرات - التي بلغت في أفضل

أوقاتها أكثر من خمسين معسكراً تحت إشراف فصائل وطنية مختلفة مقاتلة – نظاماً متدرجاً. فقد كانت المعسكرات الرئيسة تهدف إلى توزيع واستعراض للجماعات الجهادية التي تتنافس على المتطوعين. وكانت خالدين الواقعة بين قندهار والحدود الباكستانية، نقطة الدخول الرئيسة إلى القاعدة. فمن تخرج هناك من المتطوعين يجري إرساله إلى المعسكرات الأخرى. وفي العادة يتنقلون عبر اثنين أو ثلاثة أو حتى أربعة مواقع توجد غالبيتها في التلال والمناطق الجبلية من المقاطعات الجنوبية. وهذه المعسكرات في الغالب متواضعة، وتتكون من بنايات صغيرة فيها مساكن المدربين، وأماكن إلقاء التعليمات والمحاضرات. أما المجندين فإنهم يسكنون عادة في الخيام. ويتم انتقاء أفضل الرجال لتلقي تدريبات متخصصة في موضوعات محددة مثل: عمليات التخريب، حرب الشوارع، تسلق الجبال، الصواريخ، بناء الخلايا وصنع القنابل. وكانت حتى معسكرات النخبة تعاني دائماً من نقص الإمدادات والذخيرة.

ويبدأ اليوم العادي في هذه المعسكرات بصلاة الفجر. يتبعها ساعتان من التمارين الجسمانية – الركض، حمل الأثقال، التدريب على البندقية. يتبع ذلك وجبه الفطور، وأحياناً تكون هناك دروس لمدة ساعة. يليها فترة نوم قصيرة، ثم صلاة الظهر، يليها دروس دينية. ثم أشغال عادية، صلاة العصر، تدريبات جسمانية. صلاة المغرب، ثم وجبة العشاء، وفي العادة يكون النوم في الثامنة والنصف(6).

كان ابن لادن يقوم بعدة جولات في المعسكرات، يقدم خلالها المحاضرات والتشجيع. وذكر بعض المتدربين أنه اجتمع معه عدة مرات. وفي إحدى تلك الاجتماعات، عرض ابن لادن أمام الطلاب نتائج استطلاع للرأي يوضح أنه أكثر شعبية من الولايات المتحدة، وكان مسروراً جداً بنتائج ذلك الاستطلاع.

تم اصطحاب الشحي ومحمد الأمير وجراح (قبل أن يلحق بهم عمر) إلى بيت الغامدي، وهو منشأة تابعة للقاعدة قرب منزل ابن لادن في قندهار. وبدا

obeikan.com

وكأنه تم استدعاؤهم رسمياً[7]. وكان ابن لادن نفسه في انتظارهم[8]. وفي تلك اللحظة، أوشكت عملية تحوّل الطلبة من هامبورغ إلى محاربين راغبين على الاكتمال.

شهدت خطة خالد شيخ محمد لمهاجمة الولايات المتحدة عدداً من التعديلات منذ أن قدمت إلى ابن لادن عام 1996. فقد تغيّرت من عدة جوانب تماماً كما تغيّرت القاعدة نفسها.

كانت أفغانستان، في الأعوام التي أعقبت الانسحاب السوفييتي، تتلاطم في بحر من الفوضى. "وكان كثير من الشبان العرب لا يعرفون ما الذي كانوا يفعلونه. فعندما شاركوا في الحرب الأهلية، كان يقال لهم أحياناً بأنهم ما زالوا يقاتلون الروس". كما يقول برهان الدين رباني الزعيم السياسي الطاجيكي[9].

وقد وفر أسامة بن لادن والطالبان مخرجاً من هذه الفوضى. وقدّم الملا عمر للأفغان رؤية لمجتمع موحد. وسواء كان هذا المجتمع يروق للآخرين أم لا، فقد كان من الواضح ماهية هذا المجتمع. وجلب ابن لادن هذا التركيز ذاته إلى الإسلام السياسي. فقد كان يبدو أن كل دولة مسلمة كانت تضم من وقت لآخر، جماعة إسلامية معارضة على الأقل أو عدة جماعات معارضة تتنافس فيما بينها. ولدى كل واحدة من هذه الجماعات مظالمها من النظام القائم وأساليبها المفضلة في العمل. وهذه الجماعات لم تختف فجأة. ولكن وعلى مدار أكثر من سنتين منذ عودته إلى جلال أباد ربيع 1996 وحتى تفجير السفارتين الأمريكيتين شرق إفريقية صيف 1998 - أصبح ابن لادن الوجه العام المشهور للقضية. ولم يحدث ذلك بمحض الصدفة. فقد كان يروّج لنفسه ولأفكاره. ومنذ البداية، تضمن مجلس شورى القاعدة موظفاً إعلامياً. وكأي عضو آخر في المنظمة، كان على موظف الإعلام أن يتخذ له اسماً مركباً. ولم يكن هناك أنسب من كنية "أبو رويتر" على اسم وكالة الأنباء الدولية رويتر[10].

كان أبو رويتر هذا فعّالاً في عمله. فقد قام ابن لادن بإجراء عدة مقابلات ذات صدى واسع مع صحافيين عرب وأوروبيين وأمريكيين، إلى جانب المقابلات التلفازية[11]. وكان يتحدث بصوت لين، ولكنه كان يعد بإنزال غضب الله على السعوديين والأمريكان واليهود. ولم يكن برنامجه معقداً، إلا أن أهدافه وطموحاته كانت عالية. وبسبب طموحاته هذه، استطاع أن يهيمن على الجماعات الإسلامية المنافسة.

والقاعدة نفسها لم تكن في يوم من الأيام تلك المنظمة العملاقة كما يصورها معارضوها أحياناً. ولا يتعدى جوهرها في أفضل الظروف عن مائتي رجل. إلا أنهم يتوسطون مركز شبكة عنكبوتيه من منظمات ممتدة حول العالم تتشابه في أهدافها وغاياتها مع القاعدة. وكان لها في ذروة نشاطها شُعَب عملياتية في ستين دولة،[12] فهي شبكة لمجموعة شبكات استطاعت أن تستغل العادات الإسلامية التقليدية في الكرم والضيافة للمسلمين. تربعت القاعدة في مركز هذه الشبكة إلا أنها لم تكن تسيطر عليها بأي حال من الأحوال. ويميل المحللون الأمريكيون إلى موازنة القاعدة بصندوق فورد[13] قائلين بأن المنظمة تجلس وتنتظر من الآخرين تقديم الخطط المقترحة، ومن ثم تقبلها أو ترفضها. وهذا ما كان يحدث بالفعل. وبخاصة في أيامها الأولى عندما تعاونت مع منظمات أخرى بدلاً من أن تقوم هي بتولي تنفيذ العمليات بنفسها. ولكن عندما رجع ابن لادن إلى أفغانستان، قام هو ومساعده – الرجل الثاني في المنظمة أيمن الظواهري – وقائد العمليات العسكرية محمد عاطف، وهما مصريان – بتحويل القاعدة إلى منظمة عملياتية صغيرة تتعاون مع الجماعات الإرهابية الأخرى، وأحياناً تتنافس معها. وقد فرض صغر حجم المنظمة قيوداً حادة على المهارات والخبرات المتاحة بين صفوف أفرادها مما دفعها إلى اللجوء خارج نطاق أعضائها لتأمين احتياجاتها الخاصة.

obeikan.com

ومن الجوانب التي يتم تجاهلها عادة حول عمليات القاعدة هو مدى بدائية وبساطة هذه العمليات. ويميل محللو الاستخبارات عادة إلى الإشارة إلى مدى تعقيد وتقدم تلك الخطط. كما لو كان تفجير البنايات أو القوارب أو الحافلات علماً متقدماً. والحقيقة أن كثيراً من خطط القاعدة تغلب عليها العشوائية في التخطيط والتنفيذ. وعلى مدار السنين، بدت كثير من هذه الخطط هوجاء ومتهوّرة في أسوأ الأحوال. وغير عملية وسيئة التخطيط في أفضلها. ويجري تنفيذها من غير إعداد، ودون الأدوات اللازمة، وعلى يد رجال غير أكفاء. وكانت بعض هذه العمليات مثيرة للضحك في نهايتها الكارثية: قوارب غرقت، سيارات تدهورت، قنابل انفجرت قبل أوانها، بعض المنفذين سلموا أنفسهم من ناحية فعلية إلى الشرطة. وطمس الغباء المستفحل في التنفيذ في بعض الأحيان جسامة القصد، وأخفى كذلك عزيمة وإصرار المخططين. وبغض النظر عما فعلوه من أشياء أخرى، فإنهم لم يختفوا عن الساحة.

سيطرت القاعدة على عدة معسكرات تدريب أفغانية كانت تديرها فصائل المجاهدين في وقت من الأوقات. وموّلت بعضها الآخر مالياً. وتأرجحت أعداد تلك المعسكرات مع الزمن. وكانت هناك أوقات أدارت فيها المنظمة معسكراً واحداً فقط بسبب الضغوط المالية والأمنية[14]. وكانت ثروة ابن لادن محل اهتمام عام طيلة حياته العامة، ولا شك أن ذلك مكنه من القيام بدوره كممول للإرهاب. إلا أن حجم تلك الثروة كان يضخم في العادة[15]. وقدرت الحكومة السعودية أنه كان يتلقى قرابة المليون دولار سنوياً من أسرته بين أعوام 1960 إلى 1994 وهي السنة التي توقفت فيها الدفعات. إلا أن الحقيقة التي لا تقل أهمية عن ثروته هي أن هذه الثروة فتحت أمام ابن لادن مدخلاً إلى الشريحة الأكثر ثراءً في المجتمع السعودي الأمر الذي جعل منه جامعاً ناجحاً للتبرعات.

توسعت القاعدة المالية للقاعدة بما يتجاوز الموارد المالية الشخصية لابن لادن والتي تذبذبت بحسب القيود المالية الدولية التي فرضت على أمواله[16]. وحلت الشبكات الخاصة لجمع التبرعات محل الدعم المالي الأمريكي والسعودي الذي موّل الحرب ضد السوفييت. وكانت بعض هذه المصادر هي جمعيات خيرية مدعومة من الحكومة والتي ما زالت تمارس أعمالها حتى هذه اللحظة[17].

شرق إفريقية

بينما كان ابن لادن ومعه غالبية كبار معاونيه يمضون جل وقتهم في أفغانستان في تجنيد وبناء ورعاية المعسكرات وتعزيز علاقاتهم مع طالبان، كان خالد شيخ محمد يسافر حول العالم بحثاً عن حلفاء ومجندين. وبحسب ما تبين فيما بعد، فإنه كان يقوم بنسج شبكة عالمية تمتد خيوطها إلى كل مكان. "كان ينشئ مشروعات إرهابية" كما يصف نيل هيرمان محلل مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي الذي كان يتولى مهمة تتبع محمد لعدة سنوات[18].

استطاع محمد أن يطوّر علاقات شخصية مع عدد من الأشخاص الذين أصبحوا فيما بعد قادة إقليميين للقاعدة. وامتدت آثار خطاه عبر العواصم الأوروبية، والإفريقية، والخليج، ووسط وجنوب شرق آسيا، وحتى البرازيل[19]. وقام بعدة جولات في جنوب شرق آسيا انطلاقاً من كراتشي التي كان يحتفظ فيها بعدد من المساكن. ومن بين أبرز الدول التي تردد عليها ماليزيا والفلبين. وقيل بأنه اجتمع في روما مع تونسيين، وذهب إلى اليابان لشراء جرافات. وفي إحدى المرات حصلت الاستخبارات الفلبينية، ولأول مرة منذ الكشف عن خطة بوجينكا، على معلومات تفيد أن محمداً قد عاد إلى مانيلا. وكانت المعلومة محددة وتتضمن تفصيلات حول مكان وجوده والشخص الذي سيقابله هناك[20]. إلا أنه اختفى قبل أن يتمكن أفراد الأمن من القبض عليه. وكان خالد شيخ محمد يسافر في مناسبات أخرى إلى دول أخرى من أجل أن يؤسس هو شخصياً خلايا إرهابية، ويقدم لهم الخطط والمال والدعم والإمدادات. وفي مرات أخرى، قد يعمل على مستويات عليا، فيتولى الإشراف على القادة المحليين الذين يقودون الخلايا الخاصة بهم.

خلال هذه الفترة، لم يكن لدى المحققين الأمريكيين أدنى فكرة عن عمق انخراط خالد شيخ محمد في القاعدة. فهو لم ينضم إلى المنظمة بشكل

رسمي، وعلى مر السنين، قاوم إعطاء البيعة والولاء لابن لادن. إلا أنه مُنح صلاحيات مباشرة للوقوف على أكبر خطط القاعدة طموحاً: مؤامرة الطائرات الأمريكية[21]. واصل الأمريكان تتبع خالد شيخ محمد بسبب دوره في مؤامرة مانيلا؛ وكان ذلك كافياً لوضع مكافأة على رأسه مقدارها مليوني دولار ووضعه على رأس قائمة أشد المطلوبين لمكتب التحقيقات الفيدرالي، وتوزيع صوره حول العالم. وقد كان من دوافع دهشة المحققين أنه وعلى الرغم من كل هذا التعقب والاهتمام العالمي، إلا أنه بقي ناشطاً.

ويقول أحد كبار المسؤولين في وزارة العدل الأمريكية: "لقد بذلنا كل ما بوسعنا من الاتصال بأصدقائنا لمحاولة الإمساك به.. إلا أنه كان دائماً يختفي عن الشاشة"[22].

إلا أن ابن لادن لم يكن كذلك. فقد كان وبشكل متزايد، محل تركيز واهتمام محللي مكافحة الإرهاب. وفي الوقت الذي غادر فيه السودان عام 1996 واستقراره في أفغانستان، كانت أجهزة الاستخبارات تعمل على وضع حد لتحركاته. وقامت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA بإنشاء "محطة ابن لادن" وهي الدائرة الوحيدة والأولى من نوعها في تاريخ الوكالة بهدف التركيز على فرد بعينه، وكان ذلك اعتراف منها بأنه يشكل هدفاً لم يسبق لها أن رأت وتعاملت مع مثله من قبل.

يقول جورج تينيت، المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية: "لقد راقبنا أماكن وجوده، وضاعفنا معلوماتنا عنه وعن منظمته من خلال المعلومات التي كانت تأتينا من عملائنا ومخبرينا ومصادرنا ومن عدد كبير من أجهزة الاستخبارات الأجنبية. كنا نعمل بجد في برنامج غير مهادن لحجز أمواله وشل قدرته على القيام بعمليات إرهابية. وفي النهاية، تقديمه إلى العدالة"[23].

obeikan.com

وإذا كان ابن لادن يعلم بنوايا الأمريكان، فإنه لم تصدر عنه أي إشارة أو دلالة على ذلك العلم. ففي فبراير/ شباط من عام 1998، ومن معسكر في زوار كيلي قرب خوست جنوبي أفغانستان، أصدر ابن لادن بيانه الثاني في إعلان الحرب ضد الولايات المتحدة، وأعلن فيه اندماج القاعدة بمنظمات في باكستان ومصر وإفريقية. وهذه المنظمة الجديدة لا تختلف كثيراً عن المنظمة القديمة، وكانت تتبع إستراتيجية جديدة في العلاقات العامة. وأعلن البيان أن: "قتل الأمريكان وحلفائهم المدنيين والعسكريين هو واجب فردي يقع على كل مسلم قادر في أي بلد يكون فيه ذلكم ممكناً"[24].

شكل البيان دعوة لجيل جديد من الجهاديين. وعقد ابن لادن مؤتمراً صحفياً في ذات المعسكر بعد ذلك الإعلان مكرراً الرسالة نفسها حرصاً منه على توصيل الرسالة لمن فاته سماعها في المرة الأولى. وظهر خلفه في الصورة التي أخذت له في ذلك المؤتمر خارطة للقارة الإفريقية، وكان ذلك من الناحية الفعلية، دعاية لما سيأتي لاحقاً عن قريب.

وفي السابع من أغسطس/ آب من عام 1998، انطلقت شاحنات يقودها عملاء للقاعدة خلال حركة السير ظهيرة ذلك اليوم مقتحمتان الحواجز الأمنية في السفارات الأمريكية في كل من نيروبي في كينيا، ودار السلام في تنزانيا. وانفجرت الشاحنات المحملة بالمتفجرات في مجمع مباني السفارتين مسفرتان عن مقتل 224 شخصاً وجرح آلاف آخرين غالبيتهم من الأفارقة. ولولا المصادفة السعيدة بوجود صهريج مملوء بالماء واقف أمام السفارة في دار السلام لكانت الضحايا أكثر بعدة مئات. فقد امتص صهريج الماء صدمة الانفجار مانعاً حدوث كارثة أكبر. وعلى الرغم من ذلك، كان الهجوم فظيعاً من حيث الأضرار الفعلية وما ينذر به في المستقبل. فقد جرى الإعداد لهذا الهجوم قبل سنوات. وأرسل بعض الذين اشتركوا فيه إلى إفريقية قبل ذلك

التاريخ ببضع سنوات، وطلب منهم الانتظار والصبر لحين وصول الأوامر التي صدرت ذلك الصيف. وضخّم تزامن وقوع الهجمات من تأثيرها، وكشف عن درجة من التعقيد والجرأة لم يسبق لأحد أن وصف بها منظمة القاعدة.

وردّ جورج تينيت مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA بإعلان الحرب على ابن لادن، متجاهلاً أو غافلاً عن حقيقة أن الحرب دائرة رحاها من الطرف الآخر منذ عدة سنوات. كما أنه لم يكن يعلم شيئاً عن طبيعة وشكل المعارك التي ستأتي لاحقاً.

كانت خطة الطائرات قيد العمل لأكثر من سنتين، وخضعت لعدة تعديلات. كانت الخطة الأصلية التي اقترحها خالد شيخ محمد تقضي بأن يقوم خالد شيخ محمد نفسه بقيادة واحدة من الطائرات العشر، وبدلاً من الارتطام بها في بناية، اقترح أن يقوم بقتل كل الرجال على متنها. ثم الاتصال بوسائل الإعلام "وإلقاء خطاب يدين فيه سياسات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط قبل أن يقوم بإخلاء سبيل الأطفال والنساء من الركاب". أُعجب ابن لادن بهذا العنصر الشهم المهيب من الخطة ولكنه لم يضع موافقته الرسمية على اتخاذ أي إجراء حتى عام 1999، عندما قلّصت الفكرة من الخطة الأصلية باختطاف عشر طائرات إلى أربع فقط[25].

رشح ابن لادن أربعة رجال لقيادة عمليات الاختطاف: سعوديين، ويمنيين. والسعوديان هما خالد المحضار ونواف الحازمي. أما اليمنيان فهما محمد بن عطاش وبراء اليمني. وكانوا جميعاً أشدّاء، ومن قدماء المحاربين في القاعدة، وممن صقلتهم المعارك وشاركوا في القتال في البوسنة والشيشان. وكان عطاش، ويعرف أيضاً باسم خلاّد، من المخضرمين الكبار في القاعدة، واشترك في الجهاد عندما كان في الخامس عشرة من عمره حيث فقد إحدى ساقيه في المعركة. وتولى بعد الحرب مهمة الإشراف على الحراس الشخصيين

لابن لادن. كما لعب دوراً رئيساً في العمليات الهجومية في الثلاث سنوات الأخيرة. لم تضع النماذج الأولية من هذه الخطة في حسبانها أن يقوم هؤلاء الرجال بالتدريب على الطيران. وكانت هناك اعتبارات في استخدام وسائل أخرى للسيطرة على الطائرات، كتفجيرها أثناء تحليقها في الجو، كما كان يتصور كل من يوسف ومحمد في البداية. وكانت التدريبات الأولية للخاطفين تركز على مهارات القتال والاشتباك اليدوي[26].

تقدم الخاطفون اليمنيون المفترضون بطلبات الحصول على تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة بداية عام 1999، مما يدل على أن الخطة كانت موجهة نحو الألفية. وكان لدى السعوديين تصاريح دخول قبل أن يختارهم ابن لادن للمهمة. فقد كانت لديهم النية على مهاجمة الولايات المتحدة بمبادرة من أنفسهم، إلا أنه لم يكن من الواضح كيف كانوا سيقومون بذلك[27]. رفضت طلبات اليمنيين في الحصول على تأشيرات الدخول إلى الولايات المتحدة برغم عدم وجود سوابق لعمليات إرهابية يمنية ضد الولايات المتحدة، كما لم يكن هناك سبب للشك فيهم. وفي ضوء هذا الرفض، قدمت نسخة جديدة من الخطة تقترح أن يتم اختطاف طائرتين في الولايات المتحدة يقوم بها السعوديان، واختطاف طائرتين في آسيا بقيادة اليمنيين[28]. وفي هذه اللحظة طلب خالد شيخ محمد من صديقه القديم حنبلي أن يساعد في عملية الاختطاف في آسيا. إلا أنه تم صرف النظر عن هذه الخطة الأخيرة، وقرر مجلس القيادة العودة إلى العناصر الأساسية في خطة خالد شيخ محمد: اختطاف الطائرات بالقوة ووضع الطيارين من القاعدة لقيادتها - وهذه الخطة بالطبع تتطلب البحث عن طيارين جاهزين أو أشخاص لديهم القدرة والعزم على تعلم الطيران لتنفيذ المهمة.

تجمع رجال هامبورغ في بيت الغامدي في قندهار قبل حلول شهر رمضان عام 1999. وكان ابن لادن يحتفظ بمسكن له قرب معسكر قندهار. وفي

السابق، كان يتخذه للمؤتمرات والمقابلات التي كان يعلن فيها جهاده ضد الولايات المتحدة. ويستخدمه الآن لشن معركته القادمة في تلك الحرب.

سأل ابن لادن كل واحد من رجال هامبورغ عما إذا كان مستعداً للانضمام إلى صفوف منظمته، ومبايعته، والأصعب من ذلك - القبول بالقيام بعمليات انتحارية. نيل الشهادة في حرب مقدسة. وهو الشيء الذي كانوا يتحدثون عنه منذ سنين. وبعضهم كان يحلم بتلك الفرصة. وكانوا يتناقشون في أخلاقية الشهادة، وتحدثوا كيف أن الموت في سبيل الإسلام يفرق بين الموت والانتحار الذي جاء التحريم به قاطعاً. وكانوا يعتقدون أن الشهداء يصلون إلى أعلى مراتب الجنة[29]. ومرت عليهم فترات وهم في هامبورغ كانوا يتحدثون فيها عن هذه القضايا كل يوم ولعدة ساعات. وكانت مسؤوليتهم ليست أمام ابن لادن أو القاعدة، بل أمام الرب؟

وقد سبق لمحمد الأمير أن قال في مناسبة سابقة بأن ابن لادن قد يملك الجواب الصحيح وقد يكون مخطئاً. رقماً يكون سائراً في الاتجاه الصحيح وربما لا يكون. وحذّر قبل أشهر أحد الذين يحضرون حلقاته دروسه الدينية أن يبقى قوياً، ويتبع سبيل الهداية، ويبتعد عن الجماعات المتطرفة[30]. وقبل أن يأتي إلى قندهار، طلب من أمّه أن يعود إلى القاهرة لكي يبقى إلى جنبها ويوليها الرعاية اللازمة[31]. وظهر وكأنه يطلب من شخص ما أن يحجزه عن فعل شيء يعلم هو في قرارة نفسه أنه لا يقدر شخصياً أن يوقفه.

كان على زياد جراح أن يتخلى عن شيء لم يكن لدى بقية المجموعة أدنى علم به - آيسل وكل ما تمثله. ليس فقط صديقة أو خليلة، بل الحقيقة الواقعية بأنها الفتاة التي سيقضي بقية عمره معها، الشخص الذي حول الحياة الفانية إلى شيء يتجاوزه هو شخصياً[32].

وبدا أن عمر ومروان الشحي كان لديهما أقل قدر من الشكوك. فقد كان لدى عمر قبولاً حالماً لكلام الله، ذلك الاعتقاد الروحاني اليمني بروعة

الإسلام. أما الشحي فكان متحفزاً منذ اللحظة التي وصل فيها إلى هامبورغ. ولم يكن ينظر إلى الشهادة على أنها نهاية حتف المرء. بل أمراً يقبل عليه المؤمن بسعادة وسرور. كان يستشرف احتمالات الشهادة ويرقص ويغني حولها. ولعل تلك المظاهر السعيدة كانت تخفي وراءها عزيمة حديدية. وربما كانت معانقة للتوقعات التي كان يفتقدها، الشيء الذي دفع المجموعة لإعطاء الجواب الذي صدر عنهم في قندهار، وهو الجواب الذي كان، طبعاً، نعم. فقد قبلوا بالمهمة التي وكلهم ابن لادن بها[33].

لم يمكث الشحي، الذي كان يعاني من مرض ألمّ به، طويلاً. فقد سافر إلى الإمارات. وتقدم مباشرة بطلب لاستصدار جواز سفر جديد وتأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة. وفي الثالث من يناير/ كانون ثاني، قام بشراء شريط فيديو للتدريب على الطيران من موقع على الإنترنت، في أول خطوة ثابتة للتدرب على الطيران في الخطة كلها.

وفي الوقت ذاته، أرسل ابن لادن محمداً الأمير وعمر وجراح إلى قائده العسكري، محمد عاطف، الذي قدّم لهم الخطوط العريضة لعملية الطائرات. واجتمع محمد الأمير عدة مرات بأسامة بن لادن، وتم اختياره لقيادة المجموعة. وغادر الثلاثة بعد ذلك إلى كراتشي. حيث كان خالد شيخ محمد في انتظارهم لإعطائهم مهمات أكثر تفصيلاً. وقال لهم خالد شيخ بأن عليهم العودة إلى ألمانيا والبحث هناك عن تدريبات تؤهلهم قيادة الطائرات التجارية.

أبدى الثلاثة موافقتهم، وغادروا بالطريقة نفسها التي جاؤوا بها، فرادى. فقفل الأمير وجراح عائدين إلى ألمانيا، وأمضى عمر مزيداً من الوقت؛ فعاد إلى أفغانستان ولم يظهر ثانية في أوروبا إلا في مارس/ آذار في هولندا بعد أيام فقط من تسجيله شريطاً للفيديو حول الشهادة في قندهار[34].

كوالالامبور

من المؤكد أن شعوراً بالإحباط كان منتشراً داخل القاعدة في ذلك الوقت. فقبل أسابيع، أحبطت خطة لتفجير عدة أهداف داخل الولايات المتحدة وغيرها قبل بزوغ فجر الألفية. كما ألقي القبض على شخص وهو يحاول العبور إلى الولايات المتحدة من كندا. كما أحبطت أجزاء أخرى من العمليات في الأردن، ولم تفلح محاولة لنسف سفينة حربية في اليمن. وكانت سفينة سوليفانز التابعة لسلاح البحرية الأمريكي قد رست لتوها في ميناء عدن على الساحل الجنوبي الغربي، وقام المنفذون بتحميل قارب بكمية من المتفجرات نقلت عبر الجبال الصخرية القريبة من الشاطئ. وكانوا يعتزمون صدم ذلك القارب بجانب السفينة سوليفانز وتفجير المتفجرات أملاً في إغراق السفينة. وبدلاً من ذلك، وما إن وضع القارب في الماء حتى أوشك على الغرق بفعل الحمولة الزائدة. واستطاعوا إنقاذ المتفجرات. إلا أن المهمة أحبطت.

بعد هذه الإخفاقات، كان ابن لادن متردداً في إلغاء قسم في القيادة يسمى "خطط العمليات". وفي تلك الأثناء، استمر العمل في خطة مرشحي الطيران في ألمانيا والخطة الأصلية باستخدام الجهاديين الأربعة الذين اختارهم ابن لادن لقيادة الهجمات. السعوديين: المحضار والحازمي، واليمنيين: عطاش وبراء. وعقد الأربعة اجتماعاً في ماليزيا باستضافة حنبلي الصديق القديم لخالد شيخ محمد منذ أيام الحرب الأفغانية.

استطاع حنبلي الإفلات من أعين السلطات عندما تم الكشف عن خطة خالد شيخ. ولم يعرف أحد أنه اشترك فيها. واكتشف المحققون الفلبينيون صلة تلك الخطة بالشركة الواجهة التي أسسها في كوالالامبور. إلا أن أحداً لم يربطها بحنبلي. وبقي في كوخه الصغير على جانب طريق نهر مانغيس، حيث كان يعمل على بناء شبكة إرهابية محلية وأخرى إقليمية. وهو مكان غير متوقع

obeikan.com

لإدارة وتسيير أي شيء. فقد كان أبعد ما يكون عما يجري في العالم الخارجي. ومع ذلك، كان وبالاشتراك مع اثنين من رفاقه المنفيين من إندونيسيا يخططون بدقة في تلك القرية الماليزية الصغيرة، وينسجون بصبر وتؤدة شبكة منضبطة على نحو غير عادي، يطلق عليها الجماعة الإسلامية، التي تصلح لأن تكون نموذجاً لأي شخص يرغب في ممارسة نشاط مشابه لنشاطها في أي مكان في العالم. ولهذه الجماعة هيكل أكبر بكثير مما يمكن لابن لادن أن يحلم به، حيث تخضع لتقسيم جغرافي منضبط يغطي منطقة جنوب شرق آسيا برمتها. ولكل وحدة أو قسم جدول تنظيمي يسمى "مانيغس" يوضح التسلسل الهرمي للسلطة والمسؤوليات من الأعلى إلى الأدنى[35]. وعلى العكس من المنظمات الإرهابية العربية التي يغلب عليها طابع العشوائية في أحسن الظروف، وفي أغلب الأحوال تكون ارتجالية وذات نشاط واحد، كانت الجماعة الإسلامية منظمة تنظيماً دقيقاً ومنضبطاً. فقد كانت القيادة الإقليمية تعقد اجتماعات منتظمة وتفرض الضرائب على الأعضاء. وصحيح أن حنبلي وشريكيه كانوا يقبعون في بيوت صغيرة مصنوعة من الطين الأحمر وسط الغابات الاستوائية المتوارية، إلا أن حنبلي ورفاقه كانوا أبعد ما يكون عن قلة التعقيد. عمل الثلاثة بجد وعزيمة وتأن لوقت طويل من أجل تجنيد المتطوعين. وكان الرجلان الأكبر سناً يلقيان الدروس والخطب في المساجد المحلية، بينما يجلس حنبلي بهدوء في الخلف. وكان شديد الحذر. ولا يتحدث إلا لمجموعات صغيرة سراً. ويقول أحد الأشخاص بأن أكثر ما يثير الإعجاب والدهشة ليس فقط فطنة حنبلي التي كانت ظاهرة، ولكن "سلوكه الهادئ والمتواضع"[36]. وهي ليست من الصفات التي تتميز بها العقول المدبرة للإرهاب. ولهذا السبب كان حنبلي الأكثر خطورة.

نجح حنبلي في جمع الأموال والرجال. وجنّد بنجاح ملفت للانتباه مجموعة متنوعة العناصر من شرائح المجتمع تتكون من: تجار، وحرفيين،

وعمال مصانع، ومهندسين، ورجال أعمال، ومدراء، وأساتذة جامعات. ورأى هؤلاء الأتباع في حنبلي شخصية ذات جاذبية قيادية قوية برغم الهدوء الذي يتسم به. "لقد كان شخصاً متواضعاً جداً" كما يقول محمد سويري، وهو جندي متقاعد في الجيش الماليزي وأحد أتباع حنبلي. وسمح سويري باستخدام منزله لعقد الاجتماعات. حيث كان يجتمع فيه قرابة ثلاثين شخصاً لمناقشة الإسلام وموقعه في العالم. وباستثناء اختلاف الموقع الجغرافي، كان الحديث يشابه بشكل ملفت للنظر الحديث الذي كان يدور في هامبورغ.

"دار الحديث حول الشيشان، وأفغانستان، والبوسنة، وفلسطين ومعاناة المسلمين في الجزر الإندونيسية أمبون ومالوكو" كما يذكر سوبري(37).

قام حنبلي بجولات منتظمة بين هذه المجموعات الصغيرة مروجاً لهدف واحد هو توحيد مسلمي جنوب شرق آسيا تحت لواء دولة إسلامية قوية ومؤثرة وبتعداد سكاني يصل إلى ثلاثمائة مليون مسلم في المنطقة. وهذه الدولة سوف تكون، بلا شك، أكبر دولة إسلامية في العالم. وقد قام حنبلي بالدعوة إلى تحقيق هذا الهدف مبيناً الوسيلة التي توصل إليه وهي الجهاد. وفي نهاية كل اجتماع، يدير الحضور قبعة بينهم لجمع التبرعات بمبادرة منهم وليس من حنبلي. ويقدموا له ما تم جمعه في تلك الجلسة. كما جند حنبلي أشخاصاً كان يرسلهم إلى معسكرات التدريب في أفغانستان، كما فعل هو عندما كان في شبابه(38). وكلف آخرين بمهمات تنظيمية صغيرة. وتعرف حنبلي على خالد شيخ محمد في إحدى معسكرات أفغانستان، وتدرب كلاهما مع عبد[رب] الرسول سياف. ولم ينس كل منهما الآخر. فقد أشرك خالد شيخ محمد صديقه حنبلي في العملية التي استهدفت الطيران في مانيلا عن طريق تمرير الأموال وتقديم المساندة والإمدادات. وقدمت شبكة حنبلي المساعدة لرمزي يوسف "الذي كان في ذلك الوقت من بين أكثر الأشخاص

obeikan.com

المطلوبين للعدالة حول العالم. والذي دخل الفلبين سراً عن طريق الجزر الجنوبية التي تسمى الباب الخلفي.

لم تول أجهزة الاستخبارات أي اهتمام للجماعة الإسلامية باستثناء عدد قليل من أفرادها. إلا أن خالد شيخ محمد كان يراقب الأشياء عن قرب، وطلب من حنبلي أن يضم جماعته حديثة العهد إلى القاعدة. وانبهر خالد شيخ الذي تعوّد على بذخ شيوخ نفط الخليج، بحجم الإنجازات التي حققها حنبلي بموارده المالية الشحيحة[39]. وأحضره إلى أفغانستان لكي يتعرف على ابن لادن الذي كان هو الآخر منبهراً بحنبلي. واتفق الاثنان على توحيد جهودهما ومواردهما من أجل تحقيق الأهداف والمصالح المشتركة. وبدأ ابن لادن بتقديم الدعم المالي لمجموعة حنبلي[40]. ولما رفضت الولايات المتحدة منح تصاريح دخول للخاطفين اليمنيين المفترضين في خطة ابن لادن، وما تم على إثر ذلك من تعديل للخطة لتشمل آسيا، لجأ خالد شيخ محمد إلى حنبلي لتقديم المساعدة مرة أخرى. ووافق هذا الأخير على تقديم المساعدة المطلوبة بكل إمكاناته.

اختيرت كوالالمبور مكاناً لعقد الاجتماعات نظراً لاعتبارات السهولة التي توفرها: فقد اعتزم اليمنيون دراسة ومعاينة إجراءات أمن وحماية المطارات المتبعة في جنوب شرق آسيا فيما يخص المهمة التي كلفوا بها بحسب الخطة. وكان عطاش الذي فقد ساقه أثناء الحرب في أفغانستان يرغب بزيارة أحد المراكز الطبية الذي زوّد في السابق أعداداً كبيرة من المجاهدين بأعضاء اصطناعية. كما كان السعوديان في طريقهما إلى الولايات المتحدة بهدف التدريب على الطيران، ومن هذا المنظور، تشكل ماليزيا نقطة وصل ومحطة التقاء . وأخيراً يمكن للمسلمين دخول البلاد بدون تصاريح زيارة. ولأن المحضار فاتته تدريبات أفغانستان، فإن وجودهم في ماليزيا يعتبر الوسيلة الوحيدة لاجتماع القادة الميدانيين الأربعة معاً[41].

ودون علم القاعدة، كان كل من المحضار ونواف الحازمي تحت المراقبة من قبل أجهزة الاستخبارات الغربية التي كانت ترصد اجتماعاتهما وأسفارهما. وفي الشهر السابق، زار المحضار صنعاء العاصمة اليمنية. ويرتبط المحضار الذي يحمل الجنسية السعودية بروابط دم ومصاهرة بقبيلتين يمنيتين معروفتين بنزعتهما القتالية المشاكسة. وتشتهر إحدى هذه القبائل، وهي قبيلة الحدا التي تنتمي إليها زوجته، بكونها جماعة شرسة، وبارتباطها بأتباع ابن لادن، بالإضافة إلى نشاطاتها المحلية. وعلى مدى عدة سنوات كان ابن لادن يستخدم هاتفاً من منزل يعود لأحد أبناء تلك العشيرة كمقسم بريد لإرسال واستقبال الرسائل والمكالمات الهاتفية إلى أفغانستان. وتم الكشف عن رقم هذا الهاتف عن طريق تحقيقات سابقة. كما تم رصد وتحديد كافة المكالمات الصادرة والواردة منه وإليه. وفي خريف ذلك العام، كشفت المكالمات الواردة إلى ذلك الرقم أن كلاً من خالد ونواف وسالم يعتزمون الاجتماع بقادة آخرين للقاعدة في كوالالامبور.

استطاع عملاء الاستخبارات تحديد هويات الأشخاص الذين وردت أسماؤهم في تلك المكالمات على نحو غير متيقن. إلا أن المحضار خضع للمراقبة في أثناء سفره إلى ماليزيا وتم الحصول على نسخة مصورة من جواز سفره عندما سافر عبر دبي في الإمارات العربية المتحدة؛ وتم تقديم تلك الصورة إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA قبل أن يصل إلى مطار كوالالامبور الدولي. كما استطاع الأمريكان تحديد هوية نواف الحازمي على نحو قاطع قبل وصوله. وبناءً على طلب من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA، قامت السلطات الأمنية الماليزية بتعقب الرجلين ومراقبتهما من لحظة وصولهما إلى الفندق المحلي، ومنه إلى مجمع بندر سويفي للشقق السكنية خارج المدينة[42].

وتعود ملكية إحدى هذه الشقق إلى يزيد سوفات، نائب حنبلي، وهو نقيب متقاعد في الجيش الماليزي، درس الكيمياء الحيوية في جامعة كاليفورنيا ساكرمنتو ستيت، عن طريق بعثة على حساب الحكومة الماليزية إلى الولايات المتحدة كبقية الطلبة المتفوقين في جنوب شرق آسيا كاستثمار في مستقبل ماليزيا، وحقق يزيد وزوجه التي درست هي الأخرى في الجامعة نفسها، نجاحاً كبيراً لدى عودتهما إلى كوالالامبور. حيث كانت زوجته تمتلك شركة لخدمات الحاسوب تتخصص بأعمال المساندة للمكاتب، بينما كان زوجها يمتلك شركة لإجراء الفحوصات المخبرية للكشف عن وجود متعاطي المخدرات بين موظفي الحكومة. وهو عمل مجز في مجتمع شمولي متشدد مصمم على عدم فسح أي مجال أمام الرذائل الغربية لكسب موضع قدم لها فيه. سكن الزوجان مع أولادهما في منزل متواضع ذي طابقين، وكانت لديهما سيارة مرسيدس قديمة وسيارة بروتو تصطفان في مدخل المنزل. لم تكن حياتهما باذخة؛ ويبدو على المنزل كثير من سمات المناطق الاستوائية، حيث يطغى الوقت والحرارة والرطوبة فيها على كل شيء؛ ويغطي الصدأ الأجزاء المكشوفة من حديد السيارة، إلا أن الزوجين استطاعا شراء شقة في الطابق الأرضي كمنزل لقضاء إجازة نهاية الأسبوع في مشروع مجمع باندار سونغاي لونغ الواقع في التلال خارج المدينة. واستخدم المجمع شعار "حياة المدينة على الطريقة الريفية"، ويمكنك شراء وحدة سكنية بالتقسيط المريح. والشقق مفروشة بالكامل بأثاث مصنوع من خشب السنديان الروسي من إنتاج شركة آيكيا السويدية. ويمكن لهذا المجمع بما يحويه من ملاعب غولف ونواد رياضية وممرات المشي، ودروس تخفيض الوزن، أن يوجد في أي ضاحية من ضواحي كاليفورنيا. إلا أن الفارق هو أن سوفات كان يقرض شقته لقدماء المحاربين في أفغانستان الذين كانوا يأتون إلى المدينة لمعالجة أعضائهم المبتورة؛ ولهذا فإنه لم يكن مستغرباً مجيء مجموعة من العرب بعد احتفالات رأس السنة الميلادية

obeikan.com

عام 2000 ومن بينهم شخص بساق واحدة[43]. واستخدمت المجموعة تلك الشقة لمدة ثلاثة أيام. ثم ذهبوا في رحلة تسوّق في كوالالمبور. وتم تصوير عدد منهم وهم يجرون مكالمات هاتفية بجانب بركة السباحة التابعة للمشروع السكني. ولم يستطع محللو وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية التعرف على هوية الأشخاص الذين ظهروا في تلك الصورة إلا بعد عشرة أشهر عندما تم تحديد هوية عطاش كأحد القادة الميدانيين في الهجوم على السفينة الحربية الأمريكية كول في ميناء عدن بعد وقوع ذلك الحادث.

وفي الثامن من يناير/ كانون ثاني، غادر الرجال كوالالامبور. وغادر عطاش والمحضار والحازمي ماليزيا عبر بانكوك على الرغم من أن السلطات الأمنية فقدت آثارهم ولم تتمكن من معرفة مغادرتهم إلى تايلاند إلا بعد ذلك بحين. وتوجه عطاش إلى بانكوك لكي يلتقي اثنين من عملاء القاعدة. أما المحضار والحازمي فتوجها إلى بانكوك لاعتقادهما أنها نقطة أقل إثارة للشك للتوجه إلى الولايات المتحدة[44]. وفي الخامس عشر من يناير/ كانون ثاني، سافر السعوديان مستخدمين اسميهما الحقيقيين، من بانكوك إلى لوس أنجيلوس دون أن يشعر بهما أحد[45].